محاضرات مادة

تاريخ الأدب الجزائري المعاصر

المستوى: ماستر 2

التخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

الأستاذ: حمزة بسو

المحاضرة الأولى: مدخل إلى الأدب الجزائري

تمهيد:

إنّ النهوض بمسألة التحقيب الأدبي لَمن أولى الأوليات التي ينبغي على الدارس أن يضطلع بها، وذلك لأنّ التاريخ الأدبي بما هو جزء من التاريخ العام عبارة عن تراكمات تشكّل في النهاية معالم أدب أي شعب من الشعوب. غير أنّ هذه المسألة محاطة بسياج من الإشكاليات، لعلّ أبرزها –ومدار حديثنا عن الأدب الجزائري–: هل هناك أدب جزائري قديم؟ متى ظهر؟ ومع من ظهر؟ وبأي لغة ظهر؟ وعلى أيّ ساس نعدّ أدباً ما أدباً جزائرياً؟ وأديبا ما أديبا جزائريا؟

إنّ تقديم إجابة عن هذه الأسئلة محفوف بعدد من المزالق؛ فهل تحديد صفة الجزائري مرتهن بـ: ميلاد الأديب في الجزائر؟ أم كتابة ذلك الأدب في الرقعة الجغرافية التي تسمى اليوم "الجزائر"، وإن لم يكن جزائريا ولادةً وأصلاً؟ ثم هل كانت الجزائر قديما معروفة بهذا الاسم؟...

حتى لا نبقى في حلقة مفرغة، فإننا نعدّ أدباً ما أدباً جزائريا: إن كان صاحبه (أي الأديب) من هذه الرقعة التي تسمى اليوم "الجزائر"؛ بمعنى وُلد بها، ونشأ فيها، ولا يضير بعد ذلك إن غادرها وكتب أو قال أدبَه في غيرها من البلدان أو الأقطار، ويؤخذ في الحسبان أيضا كلّ أديب ذي أصول جزائرية، وُلد في بلاد غير الجزائر، ليعود إليها بعد ذلك. أمّا بخصوص البلاد الجزائرية فإنّ العبرة في الرقعة الجغرافية لا في اسمها؛ لأنّ الاسم متغيّر بتغيّر الظروف التاريخية والسياسية، بينما المكان ثابت. فالجزائر مثلا كان يطلق عليها: نوميديا، المغرب الأوسط... إلى أن سمّيت بالجزائر.

وعلى هذا الأساس فإنّ الأدب الجزائري يمتدّ من المرحلة اللاتينية/الرومانية إلى يومنا هذا، وتحديدا مع الأديب والفيلسوف المداوري (نسبة إلى مداوروش حاليا، بمنطقة سدراتة) لوكيوس أبوليوس الذي وُلد حوالي عام 125م، وهو صاحب أوّل رواية في تاريخ الإنسانية؛

رواية "الحمار الذهبي"، تميّز بـ "شمولية معارفه، وتنوع كتاباته في المجالات العلمية، والميادين الأدبية والشعرية، خاصة الكتابات القصصية والروائية، وإن لم يصلنا منها غير جزء ضئيل، ومن ثم اعتُبر أبوليوس بحقّ ممثل اللاتينية الإفريقية، ووصف بأمير خطباء إفريقيا وأكثرهم نفوذا وشهرة في عصره". أمّا الأدب العربي الجزائري فتعود بدايته الفعلية إلى عهد الدولة الرستمية (160-296هـ) بعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب.

1/ الأدب الجزائري عبر العصور:

مرّ الأدب الجزائري بمراحل تاريخية مختلفة، عرف ازدهارا في بعضها وانحطاطا أو ركودا في بعضها الآخر، تبعا للظروف السياسية والاجتماعية والثقافية، خاصة وأن منطقة المغرب العربي عموما ظلّت تضطرم بنيران الحروب والمعارك والفتن، وهي أوضاع تؤثّر حتما في تحولات الأدب الجزائري وخصائصه الفنية.

بناء على ما سبق، اجتهد بعض الدارسين في تقسيم الأدب الجزائري إلى مراحل كبرى، نخص بالذكر من هؤلاء: محمد بن رمضان شاوش بمعية الأستاذ الغوثي بن حمدان، صاحبيّ كتاب "إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر" المتكون من أربعة أجزاء، حيث عمدا إلى تقسيم الأدب الجزائري إلى أربع مراحل كبرى، هي: (العصر القديم، العصر الذهبي، عصر الانحطاط، العصر الحديث) وهو تقسيم مدرسي تعليمي أكثر منه فنّي، ومع ذلك يبقى تقسيما مفيدا في انتظام تاريخ الأدب الجزائري في أذهان الطلبة والباحثين.

أ- **المرحلة الأولى (العصر القديم):** من الفتح العربي إلى غاية سقوط دولة الموحدين (من القرن1هـ إلى القرن 6هـ):

ويعدّ عهد **الدولة الرستمية** -التي تأسست حوالي منتصف القرن الثاني الهجري- فاتحة الأدب العربي الجزائري، حيث شهد الرعيلَ الأوّل من الأدباء الجزائريين، مثل: أفلح بن عبد الوهاب، بكر بن حمّاد التاهرتي، أحمد بن فتح (ابن الخراز)، البزّاز، فضل بن نصر، سعيد بن واشكل، ابن الهرمة، أحمد بن منصور (صاحب الخطب)...

لقد عرفت الدولة الرستمية علماء متبحّرين، وحكّاما عادلين، وفقهاء مقتدرين، وشعراء مفلقين، وخطباء مفوّهين، وهو ما سمح بتأسيس حاضرة للعلم والثقافة والأدب تضارع -أو تكاد- بغداد

بالمشرق، والقيروان بالمغرب الأدنى، وقرطبة بالأندلس، ومما يؤشّر على ذلك أنّ عاصمة الرستميين تاهرت كان يطلق عليها "عراق المغرب".

إنّ الذي يعنينا من كل ما سبق: الحركة الأدبية في ذلك العهد، فكيف كان حالها؟

"أمّا إنْ أردنا إلى حركة أدبية غنيّة، مثيرة، مؤثّرة، مجدّدة، متجدّدة؛ فإنّ ذلك لم يحدث قط، وأمّا إن أردنا إلى حركة أدبية تقاس على مقاس ذلك الزمن، في ذلك المكان الذي كان حديث العهد بنور الحضارة العربية الإسلامية؛ أي على أساس أنّها باكورة تظهر على الساحة الأدبية في الجزائر بُعيد منتصف القرن الثاني الهجري؛ فإنّها فعلاً حركةٌ لا علينا إن وصفناها بالغنية والخصبة معاً". وعلى قلّة ما وصلنا* من أدب الرستميين، فإنّه كفيل بتقديم صورة عن طبيعة الأدب/ الشعر في ذلك العهد.

إنّ أوّل قصيدة وصلتنا، وكانت فاتحة الشعر الجزائري (على أرجح التقدير) تُعزى إلى أفلح بن عبد الوهاب ثالث الأئمة الرستميين، موضوعها: فضل العلم، وهي تدلّ على مدى اهتمام حكام بني رستم بالعلوم والآداب؛ اشتملت على نصائح ثمينة، وحكم مبينة، وقد أسهمت نظميّتها وبساطة ألفاظها في تسهيل حفظها من طرف طلبة العلم والعامة على حدّ سواء، بل كانت المدارس تعلّمها للتلاميذ، فيحفظونها وينشدونها في المناسبات، مثلما تشير إلى ذلك بعض الدراسات التاريخية، يقول أفلح في مطلعها:

العلمُ أبقـــــــى لأهلِ العِلمِ آثارا ... يـــــرُيك أشخاصَهم روحاً وأبكـــــارا
حـــيٌّ وإنْ مـات ذو علمٍ وذو ورعٍ ... ما ماتَ حيٌّ قد قضى مِن ذاك أوطـــارا
وذو حياةٍ على جهلٍ ومنقصـــــةٍ ... كَمَيِّتٍ قــد ثوَى في الرَّمسِ أعْصـــــارا
لِلّه عُصبةُ أهلِ العلمِ إنّ لهـــــم ... فضـــلاً على الناس غُيّابا وحُضّـــــارا
العلمُ علمٌ كفى بالعلم مَكرُمـــــة ... والجهـلُ جهـلٌ كفـــى بالجهـلِ إدبـــارا
العلمُ عند اسمِهِ أعظِم به شرفـــاً ... والجهـلُ عند اسمِهِ أعظِم به عـــــارا
يُشرّف العلـــمُ للإنسانِ منزلـــةً ... ويرفـــعُ العلـــمُ للإنســـان أقـــدارا

إنّ بساطة أسلوب هذه القصيدة "يدلّ على أنّ الإمام أفلح قد قصد بها كلّ طبقات الشعب والمبتدئين والمتعلّمين، فبسّط أسلوبها ليفهمها حتى العامة والمبتدئون، إنّ أسلوب الإمام أفلح في

* بسبب ضياعه الطبيعي، وتضييعه المقصود والمتعمّد بفعل الصراع الإديولوجي والسياسي؛ حيث دمّر العبيديون الشيعة تاهرت عام 296ه وأحرقوا أضخم مكتبة فيها، وهي "المعصومة" والتي كانت تضمّ آلاف الكتب في مختلف العلوم والفنون.

رسائله أرقى وأبلغ وأروع، فهو يستطيع في الشعر أحسن من هذه القصيدة في روعة الأسلوب ومتانته، ولكنّه آثر البساطة لِما ذَكرنا".

ومما يدلّ على نضج التجربة الشعرية وهي تدرج في مهدها، هذه الأبيات الغزلية التي تفيض شعريّةً لشاعر تاهرتي مجهول، أوردها ابن عذاري المراكشي في البيان المغرب:

فراغُ الهوى شُغلٌ ومَحيا الهوى قتــلٌ ... ويومُ الهوى حولٌ وبعضُ الهوى كلُّ
وجُود الهوى بُخلٌ ورِسْلُ الهوى عدًى ... وقُربُ الهوى بُعدٌ وسَبقُ الهوى مَطلُ
سَقَـــــى اللهُ تيهرت المُنا وسُويقة ... بِساحتِها غيثًا يطيبُ به المَحـــــــلُ
كأنْ لم يكُن والدارُ جامعةٌ لَنـــــــا ... ولم يجتمع وصلٌ لنا، لا، ولا شمـــلُ
فلمّا تمادى العيشُ وانشقّتِ العصـــا ... تداعت أهاضيب النوى وهي تنهـلُّ
سلامٌ على مَن لم تُطِق يوم بَينِنـــا ... سلاماً ولكن فارقتْ وبها ثُكـــــــلُ
وما هي آماقٌ تفيضُ دموعُهـــــا ... ولكنّهـــا الأرواح تجري وتنسَـــــــلُّ

إنّ هذا اللعب باللغة في هذا النسج الشعريّ عموما، وفي البيتين الأوّلين خصوصاً لم يكن منشؤه تكلّفا وتمحّلاً؛ مقدار ما كان منشؤه رقةً في الحضارة، ورقيّاً في الذوق، ورهافةً في الشعور، ولطفا في الإحساس، وتضلّعا عالياً في اللغة، وتمكّناً من المعاني، وقد رجّح عبد الملك مرتاض أن تكون هذه الأبيات لبكر بن حماد، بناءً على أسلوبها ولغتها الشعرية.

يعدّ بكر بن حماد (200–296هـ) نابغة شعراء العهد الرستمي، له في الشعر طول باعٍ وامتداد ذراعٍ، تميّز شعره بسلاسة الكلمات، ونفاسة العبارات، وحسن الصوغ، وبديع الصبغ، ودقة التراكيب، ورقّة الأساليب، وقوة المعاني، وتماسك المباني... تلقى دروسه الأولى عن كبار علماء تيهرت وفقهائها، وفي السنة السابعة عشرة من عمره، توجّه تلقاء بغداد، ومكث قبل ذلك بالقيروان، فنهل على أيدي علمائها من علم الحديث والفقه، ثم واصل طريقه إلى بغداد، فاتّصل بالخليفة "المعتصم" العباسي الذي أصفاه ودّه، فمدحه وأغدق عليه من العطايا الجزيلة.

وببغداد اجتمع بكر بعلمائها وفطاحل شعرائها، من هؤلاء: أبو تمام، دعبل الخزاعي، علي بن الجهم، الرياشي، ابن العربي، حاتم السجستاني... وقد جاء في العمدة لابن رشيق أنّ بكرا نظم

قصيدة على لسان دعبل يهجو من خلالها الخليفةَ المعتصم العبّاسي*، وكان دعبل هجّاءً للملوك، جسوراً على الأمراء، ولعلّه كان بين دعبل وبكر خصومة وشنآن، ومن ضمن هذه الأبيات:

ملوكُ بني العبّاسِ في الكُتْبِ سبعةٌ ولم تأتِنا عن ثامنٍ لهم كُتْبُ
كذلك أهلُ الكهف في الكهف سبعة كرامٌ إذا عُدّوا وثامنهم كـلبُ
وإنّي لَأُعْلي كلبَهم عنــك رفـــعةً لأنّك ذو ذنبٍ وليس له ذنبُ

وإيرادنا لهذه الأبيات إنّما الهدف منه إبراز مقدرة بكر بن حماد على خوض عباب القريض باقتدار، فأسلوب هذه الأبيات راقٍ متوهّج، أمّا معانيها فقويّة مؤذية، وذلك ناتج عن إجادة التصوير وفخامة التعبير المتمخّض عن التناص مع القرآن الكريم.

ولبكر قصائد في مختلف الأغراض؛ من ذلك وصف جوّ تيهرت البارد، ومعارضة قصيدة عمران بن حطّان التي مدح فيها ابنَ ملجم قاتل عليّ رضي الله عنه، فكان ردّ بكر بقصيدة فحلة فخمة جزلة هي من عيون شعره. ومن ذلك أيضا تحريض الخليفة المعتصم على دعبل، والاعتذار من أبي حاتم الرستمي، وغير ذلك من الأغراض كالمدح، والرثاء، والزهد؛ وقد استأثر الزهد باهتمامه، حتى عُرف بالشاعر الزاهد، ولُقّب بأبي عتاهية المغرب، وذلك لأنّه كان من علماء الحديث، حافظا وراويا له، وكان متفقّها؛ فمن الطبيعي أن يخوض في هذا الغرض بكلّ كفٍّ، ويميل إليه بكلّ عِطفٍ، وهذه إحدى روائع بكر في باب الزهد والوعظ، يقول:

غَفلتُ وحَادي الموتِ في أثري يَحدُو فإنْ لم أرُح مَيْتاً فلا بدّ أن أغْــدُو
أرَى عُمري وَلَّى ولم أتْرُكِ المُنـــى وليس معي زادٌ وفي سفري بُعــــدُ
أُنَعِّمُ جِسمي باللبـــاس ولِينِـــــه وليس لِجِسمي من قميصِ البِلَى بُدُّ!
كأنّي به قد مُدَّ في برزخِ البِلَـــى ومِن فــوقِهِ تُربٌ ومِن تحتِهِ لَــحدُ
وقد ذهَبَت تلك المَحـــاسِنُ وامَّحت فلم يبقَ فوقَ العَظمِ لحمٌ ولا جِلــدُ
عسى غافِرُ الزلاّت يغفِــرُ زَلّتــي فقد يغفِرُ المولَى إذا أذنبَ العبـــدُ
أنا الفَردُ عِندَ الموتِ والفردُ في البِلَى وأُبعَثُ فرداً فارحمِ الفردَ يــا فـــردُ

* وقد كان يلقّب بالمثمّن؛ لأنّه ثامن الخلفاء العباسيين، دام حكمه ثماني سنوات وثمانية أشهر وثمانية أيام، توفي عن ثمانية أبناء وثماني بنات.

إنّ أسلوب هذه القصيدة خافقٌ، وخيالهُا دافقٌ، وهي مترفّقة في البيان، مترقرقة عبر الآذان، مستقرّة في الأذهان، وقد توخّى فيها الشاعر الاقتراب من فهوم العامة، لأنّ طبيعة الغرض تقتضي الاتّعاظ لا الاستعراض. ومما قال أيضا:

الناسُ حَرصَى على الدنيا وقد فَسَدَت فَصَفوُها لكَ ممزوجٌ بِتَكدِيـرِ
فَمِن مُكِبٍّ عَليهـــــا لا تُســاعِدُهُ وعَاجِزٍ نَالَ دُنياهُ بِتَقصِيــرِ
لم يُدركُوها بعَقـلٍ عِندمـــــا قُسِمتْ وإنّما أدركُوهــا بِالمقاديـــرِ
لو كـــانَ عَن قُوَّةٍ أو عن مُغــالبةٍ طَارَ البُزاةُ بأرزاقِ العصافيـرِ

وقصائده في الزهد كثيرة، لكن للأسف ضاع أكثرها مثلما ضاع أكثر شعره في مختلف الأغراض. وأيا ما يكن الشأن فإنّ قصائده التي أفلتت من يد الزمان شاهد على نبوغه وشاعريته المتّقدة وعبقريته المتفرّدة. وقد اصطبغ شعره بصبغة الشعرية العربية البهية، وازدان بلغة الآيات القرآنية، واستنار بضوء السنة النبوية، ولذا كانت لغته راقيةً سَنيّة، رطبةً نديّة. كل ذلك أهّله لمنافسة فطاحل الشعراء في بغداد عاصمة العباسيين، فقرّبه الخلفاء والأمراء، واعترف له بالفحولة الشعرية كبار أكابر الشعراء؛ كأبي تمام، وكان أينما حلّ لفت الأنظار فلقي العناية والإكبار، فنال الحظوة لدى حكام المغرب الرستميين والأغالبة والأدارسة، ووفد إليه المثقفون وطلبة العلم من مختلف الربوع والأصقاع.

توفي بكر بن حماد سنة 296هـ –وهي السنة التي سقطت فيها الدولة الرستمية– متأثرا بجراح تعرّض لها حين عودته مع ابنه عبد الرحمن من القيروان سنة 295هـ أين باغتهما قطاع الطرق فقتلوا الابنَ وكلموا الوالد. وقد تأثر لوفاة ابنه تأثرا شديدا، فرثاه بقصائد حِسان.

هذا وقد سار الشعراء الرستميون على درب فحول الشعراء المشارقة في نظم القصائد، من نماذج ذلك زهديات بكر ورثائياته التي نسجها عل طريقة أبي العتاهية، وكذا بناء قصيدته الاعتذارية التي بناها على منوال اعتذارية كعب بن زهير حين صدّر قصيدته التي ألقاها بين يدي رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بذكر الحبيب وبَونِه، قبل أن يتخلص إلى طلب العفو، ومطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيّم إثرها لم يُفد مكبول

قال بكر:

ومُؤنِسةٍ لِي بالعراقِ تَركتُهـــا وغُصن شبابِي في الغُصون نضيرُ
فقالَتْ كما قال النواسيّ قبلَها عَزِيز علينـــــا أن نراكَ تسيــرُ

أمّا فيما يخصّ التجديد في الأغراض، فإنّنا نجد غرض الرثاء قد تعدى رثاء الأحبّة إلى رثاء المدن، وهذا ناتج عن كثرة الحروب والفتن في منطقة المغرب، وها هو أحد الشعراء يرثي مدينة تيهرت التي دُمّرت من طرف العبيديين الشيعة (الفاطميين) الذين عاثوا فيها فسادا، وأحرقوا المكتبة المعصومة، فضاع منّا تراث نفيس في يومٍ بئيس نحيس.

خليليّ عُوجا بالرسُوم وسلِّمـــا على طللٍ أقوى وأصبحَ أغبرا
أَلِمَّا على رَسم بتيهرتَ داثـــر عَفته الغوادي الرَّائحات فأقفرا
كأنْ لم تكن تيهرتُ دارا لِمَعشرٍ فدمّرها المقدارُ فيمن تدمّــرا

إنّ استطرادنا في الحديث عن الحركة الأدبية في العهد الرستمي له إعتبارات أهمّها: أنّ المرحلة الرستمية شكّلت عتبة الأدب الجزائري، حيث شهدت الرعيل الأول من الشعراء الجزائريين، يضاف إلى ذلك الرغبة في التعريف بجذور الأدب الجزائريّ ورواده.

حلّ عهد **الدولة الفاطمية العبيدية*** فأخضَعتْ بلادَ المغرب بأكمله لحُكمها، قبل أن تنقل عاصمتها –من المهدية– إلى مصر. وقد قرّبَ أمراءُ هذا العهد الشعراءَ فمدحوهم وأثنوا عليهم، وهذا ما حمل ابن هانئ الأندلسي على القدوم إلى المسيلة، فاتّصل بأميرها جعفر بن علي بن حمدون ولكنّه وجد قصره معمورا بالشعراء فنافسهم بشعره إلى أن خبا صوتهم أمامَه، فهو القائل:

أرى شعراء المَلِكِ تنحَّت جانبي وتنمو عن الليث المخاض الأوارك

وفي عهد **الزيريين** استمرّ الأدب على حاله، وفي هذه الفترة بالذات ظهر شاعر مفلق وناقد مقتدر؛ إنّه ابن رشيق المسيلي المعروف بالقيرواني، والذي يُعدّ من أكبر أدباء عصره، وأشهر بلغاء مصره، له شعر رائق راق، ألّف ما يربو عن 30 كتابا، ولم يصلنا منها سوى كتابَيه "العمدة في صناعة الشعر ونقده" وكذلك "قراضة الذهب في نقد أشعار العرب"، ويُعدّان من الكتب

* عهد الفاطميين والزيريين: القرن 4 و5ه (10-11م).

المؤسِّسة للنقد الأدبي في المغرب. تتلمذ على يد أستاذه عبد الكريم النهشلي المسيلي صاحب كتاب "الممتع في علم الشعر وعمله".

ولمّا أفضى الأمر إلى **الحمّاديين*** أبناء عمّ الزيريين صارت القلعة المنسوبة إليهم ثمّ بجاية بعدها مركزي العلم والثقافة والأدب بالبلاد، فظهر حينذاك رجال ضربوا بسهم وافر في هذه الميادين كلّها، إلاّ أن الدمار فعل بآثارهم مثلما فعل بآثار من تقدّمهم، لولا أنّ العماد الأصفهاني احتفظ لنا في كتابه "خريدة القصر" بتراجم مقتضبة لأدباء هذا العهد من كتّاب وشعراء كما احتفظ ببعض إنتاجهم الأدبي نثرا ونظما". وقد اشتهر في هذا العهد شاعر كبير برع في نظم الشعر، ألا وهو ابن حمديس الصقلي الذي افتتن بجمال بجاية وقصورها ورياضها وحِياضها، فنقل لنا أوصافا رائعة للحضارة الحمّادية، ويبدو أنّ ابن حمديس إلى جانب أبي بكر الداني المعروف ببان اللبّانة صاحب الموشحات المشهورة، قد غطّيا على شعراء زمانهما، بجودة أشعارهما.

أمّا مرحلة **المرابطين** –والتي عاصرت دولة الحماديين وزاحمتها في الجهة الغربية للجزائر– فقد ضعفت الحركة الأدبية فيها، وذلك راجع إلى جهل أمرائها باللسان العربي، وتقديمهم للفقهاء على حساب رجال العلم والثقافة والأدب.

وسرعان ما انهارت دولة المرابطين وخلفتها دولة **الموحّدين*** العتيدة التي توحّد في عهدها المغرب بأقطاره الثلاثة تحت رئاسة البطل العظيم والسياسي المحنك عبد المؤمن بن علي الجزائري، وقد كانت الجزائر في العهد الموحدي منقسمة إلى ولايتين كبيرتين: الولاية الغربية وقاعدتها تلمسان، والولاية الشرقية وقاعدتها بجاية. وقد نبغ في هذا العهد بكلتا الولايتين أدباء كثر من كتاب وشعراء، إلاّ أنّ أكثرهم ذِكراً وأبعدهم صِيتاً الشاعر المفلق والمؤرّخ الكبير محمد بن حمّاد الصنهاجي الحمزي.

عوامل تطور الحركة الأدبية الجزائرية في المرحلة القديمة (العصر القديم):

لا شكّ أنّ هناك عوامل ساهمت في تطور هذه الحركة الأدبية خلال العهود السابقة الذكر، ولعلّ من أهم تلك العوامل ما يأتي:

- الاستقرار النسبي بعد الفراغ من الفتوحات الإسلامية.

---

* عهد الحماديين والمرابطين: القرن 6ه (12م).
* عهد الموحيدن: القرن 6 و7ه (12 و13م).

- انتشار اللغة العربية، وتمكينها بين السكان في مختلف العهود، واعتمادها لغة رسمية في الدواوين الحكومية والمراسلات والتأليف وخطب الجمعة.
- الرحلة نحو المشرق لطلب العلم، مثل رحلة بكر بن حماد.
- تشجيع الحكام للمبدعين وتقريبهم، ومن ثم المنافسة الشديدة بينهم.
- إنشاء المكتبات العمومية، مثل مكتبة المعصومة في عهد الرستميين.
- الإفادة من العلوم والآداب التي وصلت إلى المغرب عن طريق العلماء والأدباء الوافدين إلى المغرب الكبير.

ب- المرحلة الثانية (العصر الذهبي): من ق7هـ إلى ق9هـ (13-15م):

إذا كان عهد العباسيين في المشرق يعدّ أزهى العصور، فإنّ عهد **الزيانيين** (العبد الواديين) ومن عاصرهم من الحفصيين والمرينين يعدّ العصرَ الذهبي في المغرب.

لقد اتّخذ الزيانيون من تلمسان عاصمة لهم، وأسسوا بها حضارة –ما زالت معالمها إلى يومنا هذا– قوامها العلم والأدب والفنون، أمّا فيما يخصّ الحركة الأدبية، فقد نشطت أيّما نشاط، وبلغت ذروتها على أيدي شعراء مفلقين عُرفوا باقتدارهم وتحكمهم في ناصية اللغة، كما عُرفوا ببلاغتهم وسعة اطلاعهم، ومن أبرز هؤلاء فريد عصره ونابغة زمانه ابن خميس التلمساني (ت 708هـ) الذي كان من فحول الشعراء وأعلام البلغاء، حافظا لأشعار العرب وأخبارهم، اعتنى الناسُ بحفظ أشعاره ورواية أخباره حتّى بلغت شهرته بلاد المشرق. ومن أدباء هذا العهد أيضا السلطان أبو حمو موسى الثاني، كان ذا حظ وافر من العلم والأدب يقرض الشعر ويقرّب الشعراء إليه، له كتاب في السياسة عنوانه "واسطة السلوك في سياسة الملوك". ومن هؤلاء أيضا: ابن الخطاب، والقيسي، وأبو الدلاّل الذي نظم قصيدة مطوّلة تشتمل كلّ كلماتها على حرف السين، مما يشي بالاقتدار على التلاعب بالألفاظ؛ يقول في مطلعها:

سرى النسيم نسيم النفس والنّفسا فاستخبرن نسره واستفهمنه عسى

وقد نزل بالجزائر عدد كبير من العلماء والأدباء الأندلسيين بعد نشوب الفتن والمعارك بالأندلس وكذا بعد سقوطها، فكانت تلمسان وبجاية خير مقصد لهم، كيف لا وهما منارتان للعم والثقافة والأدب آنذاك. ومن هؤلاء لسان الدين بن الخطيب (ت 1374م)، الذي كان لا يُجارى في

الشعر والترسّل (فن الرسائل)، ولم يكن يضارعه في عصره ومصره إلاّ العلامة ابن خلدون (ت 808هـ/ 1406م) الذي قضى أعواما ببعض مدن الجزائر منها: بسكرة، بجاية، تلمسان، تيهرت، وقد كانت بينه وبين ابن الخطيب مراسلات كثيرة. وإذا تمعنّا في جودة المعاني ورقة الأساليب التي جادت بها قرائح الأدباء، وإذا تأمّلنا الأفكار التي وصل إليها كثير من العلماء الأفذاذ في كتبهم المتعددة، تيقنّا لا محالة أنّ الأدب قد بلغ أثناء تلك الفترة ذروته القصوى، وأنّ كلّ هذا النتاج الفكري يجعل هذا العصر عصرا ذهبياً. ولنا أن نقف على عوامل ازدهار الحركة الأدبية آنذاك.

عوامل ازدهار الحركة الأدبية في العصر الذهبي:

- انتشار اللغة العربية بعد حركة التعريب التي مسّت المدن والبوادي والقرى.
- إنشاء المدارس من طرف السلاطين والإشراف عليها وتزويدها بالمكتبات.
- نزوح المسلمين من الأندلس إلى حاضرة الثقافة والعلم تلمسان بعد سقوط غرناطة على أيدي الإسبان عام 1492م، وهذا يعني الاستفادة من علومهم ومعارفهم وآدابهم من خلال حلقات العلم وغيرها.
- إكرام العلماء وتشجيع الأدباء من قِبل أصحاب السلطة الذين كانوا هم أنفسهم ذوي حظّ وافر من الثقافة والاقتدار على نظم القريض، وخير شاهد على ذلك أشعار السلطان أبي حمو موسى الثاني، وابنه السلطان أبي زيان محمد الثاني.
- نشاط حركة التأليف، فقد عرف هذا العصر تصانيف في مختلف العلوم والفنون، وكان أصحاب السلطة أنفسهم يؤلفون، مثلما فعل أبو حمو موسى الثاني.
- المنافسة الشديدة بين الزيانيين والمرينيين والحفصيين في استقدام العلماء وتقريب الشعراء.

وفي القرن الأخير من هذا العصر الذهبي (9هـ/ 15م) بدأت الأوضاع تتدهور وتسوء بسبب الخصومات الداخلية بين أفراد الأسرة الحاكمة، وبسبب الصراعات بين الدولة الزيانية وجارتيها الحفصية والمرينية، وقد استغلّ الأجانب هذه الصراعات، فتوالت الحملات الصليبية، مما كان مؤذنا بأفول نجم الحضارة الزيانية. هكذا ضحلت العلوم واضمحلّت الثقافة، وهاجر بعض العلماء، وانعزل بعضهم الآخر، فانتشرت الزوايا في ربوع الجزائر واستأثر بها رجال ضعيفو المستوى والعقيدة، فسادت الطرقيّة والخرافات والبدع والاعتقاد في الأولياء والأضرحة.

ج- المرحلة الثالثة (عصر الضعف والانحطاط) الفترة العثمانية: 10 إلى 12هـ (16-19م):

لقد تكالبت الحملات الصليبية الإسبانية على الجزائر، وأنهكت قوى المدن الساحلية، مثل: بجاية وجيجل والجزائر ومستغانم ووهران. وفي ذلك الزمان "كان الأسطول التركي قد اشتُهر بإنقاذ مسلمي الأندلس من براثين الاضطهاد العنصري والديني المسيحي. فاستنجد حينئذ الشعب الجزائري بالأتراك، وبعثوا إليهم برسائلهم وقصائدهم، فلبّوا طلبهم وحاربوا العدو حربا مريرة بجانب الشعب الجزائري الباسل الأبيّ حتى أرغموه أن يعرض الصلح على الجزائر". وبعد جلاء العدو المسيحي بسط الأتراك نفوذهم على الجزائر، وتحكموا في زمام السلطة، فبدأ عهد جديد بالجزائر، هو **العهد العثماني**، هذا العهد الذي لم يعرف فيه المجتمع الجزائري الراحة ولا الاستقرار، فقد استأثر الأتراك بالسلطة، وفرضوا على الجزائريين قوانين تعسفية، في كثير من الأحيان، قائمة على الظلم والاستغلال، فساءت الأوضاع الاجتماعية وتدهورت الحياة الفكرية والثقافية، وأصاب الجمودُ الحركةَ الأدبية. ومن أشهر أدباء هذا العهد، داهية عصره وفخر مصره أحمد المقري (ت 1041هـ/1632م) صاحب كتاب (نفح الطيب). يعدّ المقري حافظ المغرب وجاحظ البيان بلا منازع، لم يُرَ نظيره في جودة القريحة وصفاء الذهن وقوة البديهة. ومن شعراء هذه الفترة أيضا: ابن علي الجزائري، وسعيد المنداسي، هذا الأخير الذي نظم قصيدة يهجو فيها الأتراك حكّام تلمسان، وهي صورة لنظرة النظرة المثقفين للأتراك آنذاك، منها هذه الأبيات:

أَمِن قادرٍ بالله يحمي تلمسانـــــا فإنّ بها مِن قوم يـــاجوج إخونـا
بَنَى الســدَّ ذو القرنين للنّـــاس فياليته من شوكة التــرك هنّانـــا
فما دَبّ فوق الأرض كالترك مجرمٌ ولا ولدت حوّاءُ كالتــرك إنسانـــا
عتوا واستفزوا المسلمين من القرى وقد عبدوا حُمرَ الدنانيـر أوثانـــا
قتلتَ فُحــول العلم صبراً ولم تزل على عَهدِكَ المعلوم في الزيغ هامانـا

"إنّنا لا نقول إنّ الجهل كان يعمّ البلاد، والأمية كانت منتشرة في أنحائها، بل كان التعليم يقع في المساجد المتعددة والكتاتيب والزوايا، ولا سيما منه التعليم الديني، الذي كان يقوم به المعلمون والعلماء، وكانت هذه المؤسسات تعمل بواسطة الأوقاف الكثيرة المحبسة في القرون السابقة للقيام بهذه الوظيفة، وكانت لديها أيضا مكتبات متوفرة المجلدات. ولكن هذا التعليم سطحي لا يرتفع إلى

درجة التعليم العالي، وكان الاعتقاد بالخرافات مشاعا، والإيمان ببركة أولياء الزوايا ممّا لا نزاع فيه"، وبناء على ما سبق نقف على عوامل تدهور الحركة الأدبية في هذا العصر.

عوامل تدهور الحركة الأدبية وانحطاطها في عهد العثمانيين:

- افتقار الأتراك للغة العربية؛ فلغتهم هي اللغة التركية.
- سيطرة الأتراك على السلطة والشؤون الإدارية وإبعاد الجزائريين عنهما، وهذا يعني اعتماد اللغة التركية لغة رسمية على حساب اللغة العربية.
- تدهور الأوضاع الاجتماعية بسبب انتهاج الأتراك سياسة المغالب على المغلوب، وانتشار الفساد، والقهر الذي كان يمارسه الجنود الأتراك على الجزائريين. فجوّ مكفهرّ كهذا لم ليسمح بانتعاش الحركة الأدبية.
- كثرة المعارك والتطاحن والخلافات الخارجية، والمتمثلة في صدّ القراصنة والمعتدين، وأما الخلافات الداخلية فكانت بين أفراد الأسرة الحاكمة وبين العثمانيين والكراغلة (الأتراك الذين لهم أمهات جزائريات) فضلا عن ثورات الشعب الجزائري ضدّ هذا النظام المستبدّ.
- انتشار البدع والخرافات والإيمان ببركة أولياء الزوايا.

د- **المرحلة الرابعة (العصر الحديث)**: 1114هـ (1830م):

يجمع الدارسون على أنّ البداية الفعلية للعصر الحديث، عند العرب، تعود إلى الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798م بقيادة نابليون بونابرت، من هنا فالأدب العربي الحديث مرتبط بهذه الفترة عموما، وما يهمّنا من هذا الأدب، هو الأدب الجزائري الحديث، الذي إن شئنا أن نحدّد بدايته الفعلية بشيء من التفصيل، فسنجد أنفسنا مضطرين إلى العودة بحداثته الزمنية إلى سنة 1830م، وهي السنة التي عرفت احتلال الجزائر من طرف فرنسا. وهي الفترة التي ظهر فيها القائد والأديب (الأمير عبد القادر).